الحروب والشؤون الاجتماعية(*)

لحضرة صاحب السعادة محمد سعيد لطفى بك

وكيل وزارة الشؤون الاجتماعية

سيداتى ، وسادتى :

إن خير مقياس لرقى الأمم هو رقى شؤونها الاجتماعية ، وقد ترى أيها المستمع الكريم أمتين من جنس واحد أو على دين واحد ، أو تحت نظام حكم واحد ، ومع ذلك يسهل عليك أن تحكم أيهما أرقى ، وأيهما أطيب عيشا ، وأيهما أكثر فضائل وأقل رذائل .

ولما كانت الكافة فى كل الأمم فقراء ، كانت هى المقياس الصحيح لرقيها ، فقد تجد فى بلد يذوق فقراؤه الأمرين من بؤس و يأس ، فريقا قليل العدد من المترفين ينعمون بالطيبات من الرزق و يحيطون أنفسهم بمتع لا عدد لها ، كما أنك قد تجد الثقافة فى أوجها فى طبقة من رجال الدين والعلماء ، وتجد التالية محرومة من كل النوافذ التى تضيء ، بل انك لتجد مع الأسف الشديد فى بعض البلد أن طبقة مزدراة يسمونها الأنجاس ، وحاشا للا دمى أن يكون نجسا ، ولقد وصف عالم انجليزى حال فرنسا الاجتماعية أيام الثورة الفرنسية الكبرى وصفا يذيب القلوب و يدمى الأعين ، قال ان الضرائب على فداحتها قاصرة على الفقراء لأنهم لا يستطيعون دفعها ، والأغنياء معفون بحكم القانون لأنهم قادرون على دفعها ، ثم عدد هذه الضرائب وسرد هذه المظالم ، وانا لذاكرون بعضها على سبيل التمثيل لا الحصر ، أولا ضريبة العشر للدولة ثم ضريبة ٥ ٪ للكنيسة وضريبة أخرى مثلها للشريف الذى يهيمن على المنطقة ، وقد حرم الاشراف على الناس أن يطحنوا قمحهم إلا فى طواحين الاشراف ، وأن يعصروا عنبهم إلا فى معصرة الاشراف ، وعليهم أن يسكتوا الضفادع حتى ينام الشريف ، وأن يطعموا كلاب الصيد ولا يردعوا الحيوانات التى يحب صيدها ، فيتركونها تأكل محاصيلهم كما تشاء ، اعتداء على الأموال والأنفس والأعراض سبب الثورة الكبرى الفرنسية ، وأشعل ثورات أوروبا فى القرن التاسع عشر ، وما كانت الحروب المتعددة فى ذلك القرن الا لتنقذ البشرية من حال لم يطق الناس عليها صبرا الى حال تصير من حسن الى أحسن . لولا التطرف المعيب الذى اشتمل بعض البلدان فى بعض الأحيان ، فغسل الجرائم بالدم وانتقم من الجريمة بجريمة ، وتعددت الضحايا وكثرت الآلام .

الحالة الاجتماعية — سيداتى وسادتى — تتطور وتحلو بالتدرج والهدوء والاستقرار ، وتزهو وتزدهر بالعلوم والفنون ، وتطيب بالرخاء ونمو الثروة العامة وقلة المتبطلين ، ولا تكون هنيئة إلا حيث لا تنغص الأمراض المضاجع ، ولا يدفع الجوع والفقر الى الشرور ، قال

(*) المحاضرة الثانية من برنامج اذاعات الوزارة لشهر رمضان المعظم .

"تولستوى" ما معناه : ان أردت أن تحكم على حضارة أمة من الأمم، فعليك ببيوت الفقراء ، فاذا وجدتها لائقة ووجدت الأزهار فى نوافذها ، فاعلم أن الشعب ناعم سعيد ، وقال السيد جمال الدين الأفغانى : ان أردت أن تعرف أخلاق أى شعب من الشعوب فاجلس فى منتديات الطبقة الفقيرة ، فهناك ترى الغنى الذى افتقر والفقير الذى سيغتنى ، والفقير الذى لن تتغير أحواله .

والحالة الاجتماعية هى نتيجة الماضى ولا تتغير إلا ببطء ، والعوامل التى تعمل فيها متعددة النواحى من سياسية الى اقتصادية ، ومن دينية وتثقيفية الى رياضية تقرأ عنوانها فى أمثالها السائرة وفى أغانيها الشعبية ، ولعلى لا أكون مخطئا خطأ كبيرا اذا قلت إن الحروب هى المحك لاختبار كفاية الشعوب ، وهاكم حربان عظيمتان وقعتا فى جيل واحد ، وكانت ألمانيا وحلفاؤها هى البادية وهى المنتصرة حتى الفصل الأخير من الرواية ، فما سر الهزيمة وقد تكررت مرتين ، وتعاقبت دفعتين ؟ السبب الأول والأهم عندى هو الخطأ فى تقدير قوة أعدائها ، فحسبت أن بريطانيا لن تصبر على القنابل المختلفة الأحجام أكثر من مائة يوم ، وظنت أن الثراء والترف سيشغل أميركا فلن تفعل كل ما فعلت ولن تقدر على اخراج ما أخرجت من عدد الحرب ، كما قدرت أن روسيا السوفيتية لن تصبر على النظام الاجتماعى الجديد بعد هزيمة ساحقة ، ولكن الانجليز صبروا على المكاره وتحملوا المصائب بشجاعة ، وأخرجت المصانع الأميركية أكثر مما وعدت به ، ولم يغير الروس نظامهم الاجتماعى الجديد ، والمدافع الألمانية تضرب لينغراد وموسكو وستالنجراد ، وكانت النتيجة أن سحقت ألمانيا سحقا ودمارا من الجوع ونقص المواد مادهاها واستسلمت لحكم الأعداء . ولو أعطى الشعب الألمانى كياسة سياسية لتجنب الحربين ، ولكنه اعتاد أن يطيع الزعماء ويعبد الأقوياء ؟ فأورده الزعماء والأقوياء هذا المورد وسقوه هذه الكأس المريرة ، أما الانجليز فقد انحنوا اجلالا للزعيم تشرشل ، ولكنهم رأوا بثاقب نظرهم أن الدنيا الجديدة والنظام الجديد يتطلبان رجالا من طراز آخر ، فانتخبوا حزب العمال بأغلبية عظمى . وهاهى ذى اليابان أتقنت فنون أوروبا وعلومها واستعدت للحرب أكمل استعداد وألقت بنفسها فى تنورها حتى قبل أن الحرب تعلن ، واندفعت فى الفتح اندفاعا لا مثيل له فى التاريخ ، فلما دارت الدائرة ، وآن أوان التنكيل بها التمست مخرجا ، فلما لم تجد اليه سبيلا رضيت بالهزيمة والتسليم بلا قيد ولا شرط ، ولم تتمسك الا بشرط واحد وهو بقاء الميكاد وعلى العرش وتمتعه بكامل سلطته الدستورية .

وهاكم الدنمارك ، عرض عليها الحلفاء أقليمى شليزوك وهولنشتين ، وكانت ألمانيا قد اقتطعت من الدنمارك هذين الاقليمين فى حرب سابقة ، فأبت الدنمرك أن تقبل هذا الحل ورفضته ، وطلبت من ألمانيا حل المسألة بطريق آخر وهو طريق الاستفتاء ، فوقع الاستفتاء وبقى فى ألمانيا من القرى من أراد البقاء مع ألمانيا وانضم الى الدنمارك من رأى الانضمام ، وفى بداية هذه الحرب هاجم الألمان الدنمارك ولم يكن الجيش الدنمركى الا

عشرة آلاف ، فقاوم أربع ساعات ثم صدر اليه الأمر بالتسليم والاحتجاج . وجنبت سويسرا والسويد نفسيهما الحرب وبقيتا محايدتين حيادا صادقا حتى انتهت . إن دلت هذه الأمثلة على شيء فهي تدل على أن لكل شعب مزاجا خاصا وحالة اجتماعية خاصة وكفايات من أنواع مختلفة ، بعضها حريص على الحرب ما أستطاع الى ذلك سبيلا ، وبعضها مصمم على ألا ينغمس فيها ، وبعضها لا يسلم اذا دخلها مهما تحمل في سبيل ذلك من نكبات .

سيداتي وسادتي :

تحدث الحرب في سنوات من التغييرات والتطورات الاجتماعية مالا يحدث في السلم الا في عشرات السنين ، ذلك لأن الحرب تكشف عن عيوب وأخطاء وعن احتياجات ما كانت لتظهر ظهور الشمس لولا الحرب .

رأت مصر في نهاية الحرب الماضية أن لا بد لها من الاستقلال السياسي ، فطالبت به وأصرت عليه ونالت أولى مراتبه وهي تطالب اليوم باستكماله ، ورأت أن نظامها الاقتصادي غير مستقر ، وأنشأت بنكا ومصانع ، وترى بعد هذه الحرب أن تضاعف مصانعها وأن تستخرج معادنها وتكهرب آلاتها ، ورأت نقص القوت ، لذلك ستعدل ريها وصرفها وتستصلح الأبوار لتكفي نامسها أقواتها ، ورأت الأمية مسبة فبدأت بحربها ، ورأت أن تعالج شأن العمال الصناعيين والزراعيين ، فأصدرت بعض القوانين لحمايتهم ، وستصرف كل ما عندها من احتياطي للترفيه عنهم ، كذلك نظام زيادة الضرائب على الأغنياء بعد أن أعفت الفقراء وخففت عن متوسطي الحال .

من نتائج هذه الحرب تقريب المسافة بين الغني والفقير في كل بلد من بلدان العالم وتقريب الأمم بعضها من بعض ورفع مستوى المعيشة في الدنيا ، ومحاربة المرض والجهل والجوع في كل مكان .

سيداتي وسادتي

شاهدت حربين عظيمتين من الحروب العالمية ، ولا أظن الأجل يمتد بي لأشهد حربا ثالثة ، وإني لمقتنع اقتناعا تاما بأن واجبنا هو أن نصلح حالنا ونسوي أمورنا تسوية ترضي جميع المواطنين ، ويسعد فيها كل الأهلين تسوية تجعل الدنيا في عين الفقير وتخفف آلام المريض وتقضي على البطالة ، ولا أكون مبالغا اذا قلت إن أرض مصر تستطيع أن تنتج ضعف ما تنتج وإن مصانعها يجب أن تكفي أهلها وتكسو البلاد المجاورة ، وإن معادنها مصدر ثروة لا يقل عن الزراعة والصناعة ، ونحن يا بني قومي شعب ذكي الفؤاد يحب العمل ، فلننصرف الى ما ينفع الناس ويدر الخير على مصر ، ولتكن جميعا أصدقاء متعاونين عاملين مخلصين رحماء ، أسأل الله أن يكون لنا معونا . وأن يعيد عليكم هذا الشهر المبارك بأجزل الخير وأفضله ، والسلام عليكم ورحمة الله .